التَّواضُعُ

في ضَوءِ القُرآنِ الكَرِيمِ والسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ

تأليف
سليم الهلالي

دار ابن القيم

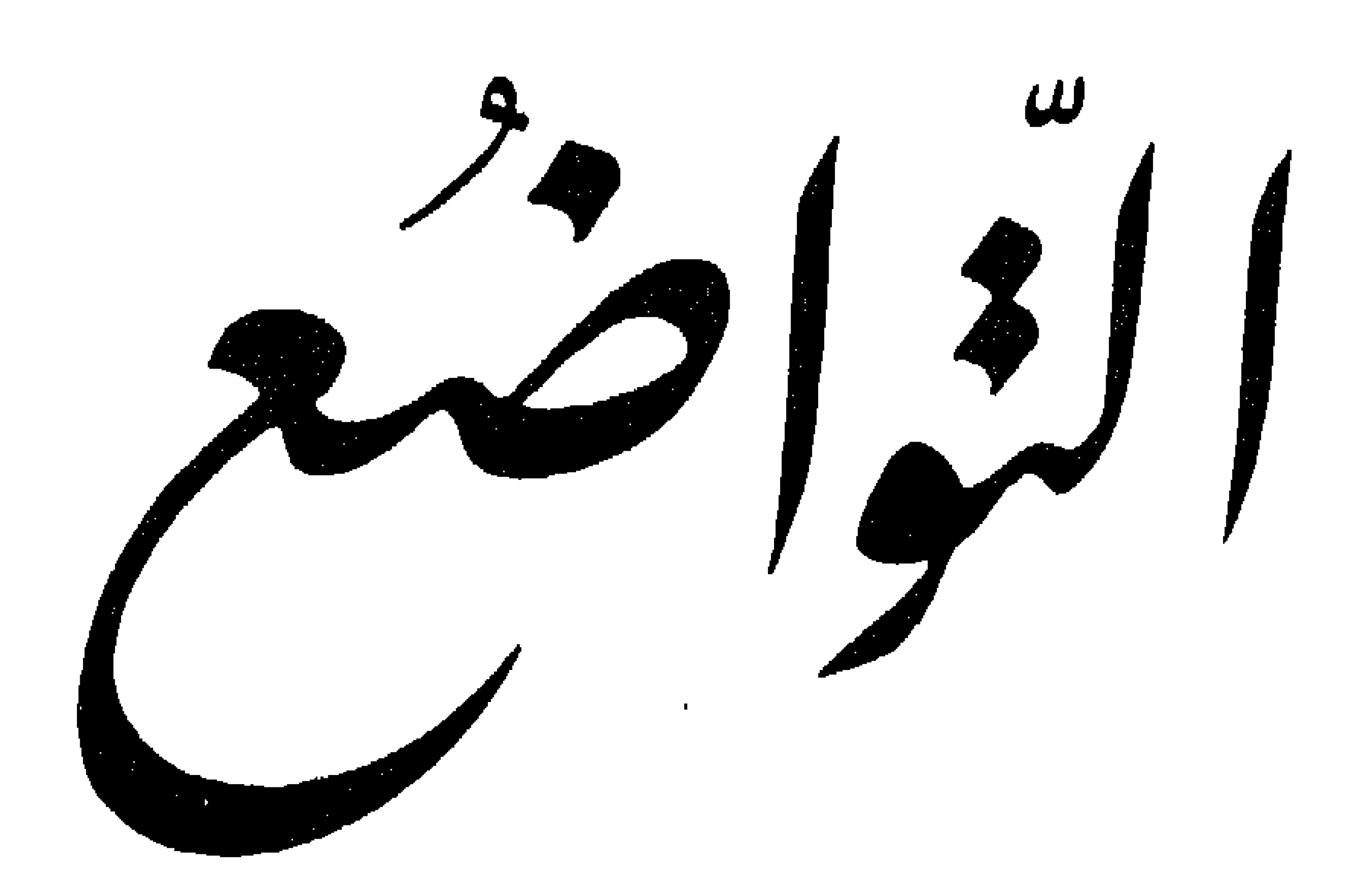
التّواضُع

الطبعة الأولى

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

دار ابن القيم للتوزيع والنشر

هاتف : ٨٢٦٨٣٤٣ - ص.ب : ١٨٦٥ - الدمام - رمز بريدي : ٣١٩٨٢ - الدمام - جنوب الاستاد الرياضي - المملكة العربية السعودية



في ضوء القرآن الكريم والسنة الصحيحة

تأليف

سليم الهلالي

دار ابن القيم

بسم الله الرحمن الرحيم

من أنوار التنزيل

وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا

[الفرقان : ٦٣]

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن آفة الكِبْر عظيمة، وفيه يهلك الخواص، وقلما ينفك عن العباد والزهاد والعلماء بله العامة، وحسبك ما وقع لعدو الله إبليس - لعنه الله - لما تكبَّر حَسَداً فبغى فعصى ثم أدبر يسعى مكراً وغدراً.

ومن تأمل سيرة السلف الصالح الأُول الذين سبقونا بالعلم والإيمان وجدهم يُرَوِضُون أنفسهم على خُلُقِ التواضع العظيم الذي يجتث بذرة الكبر من أصلها فتغدو النفس مخبتةً خاشعة فإذا نزلت عليها آيات الله اهتزت وربت وانبتت طيبات طَلْعِها نضيد.

ولما رأيت الأمر كذلك سطرت هذه الرسالة الموسومة: «التواضع في ضوء القرآن الكريم والسنة الصحيحة» لعلها تكون للمتواضعين إماماً يهدي للتي هي أقوم بالتي هي أحسن.

وأرجو الحق تبارك وتعالى أن يكتب لها القبول الحسن بين الخلق، وأن يدخر لي ثوابها إلى يوم لقائه يوم يرفع المتواضعين إلى عليين ويُكِبُّ المتكبرين المتجبرين في سواء الجحيم.

ومن وجد فيها خيراً فليحمد الله ولا ينسانا من دعاء صالح، ومن وجد غير ذلك فلا يأل جهداً في تذكيري فإن ذلك من ضعفي وتقصيري.

وعلى الله قصد السبيل

وكتبه

أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي

ليلة الأربعاء لليلةٍ بقيت من ذي القعدة الحرم

سنة ألف وأربعمائة وثمان من هجرة محمد رسول الله ﷺ

في عمان البلقاء عاصمة الأردن.

١ـ التَّوَاضُعُ لُغَةً

التواضع: هو التذلل والتخاشع.

وأصله: تواضعت الأرض، أي: انخفضت عما يليها ، وكأن المتواضع بخشوعه وسكينته تراه من بعيد لاصقاً بالأرض، بينما المتكبر بتعاليه كأنه يطاول شموخاً، ولهذا يشير قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾.

[سورة الإسراء، آية ٣٧]

٢ ـ التَّوَاضُعُ شَرْعًا

اعلم أيها العبد المتواضع: أن التواضع خلق سني يشمل خيرات كثيرة:

فهو خضوع للحق، وانقياد له، وقبوله ممن قاله في الرضى والغضب.

وهو خفض الجناح، ولين الجانب.

وهو أن لا ترى لنفسك قيمة فوق العباد.

وهو أن لا ترى لأحد إلى نفسك حاجة.

٣ ـ أنواع التَّواضُع

اعلم أخا الإيمان: أن التواضع على ضربين: أحدهما محمود، والآخر مذموم.

أما التواضع المحمود: فهو تواضع المرء لله، وترك التطاول على عباده والإزدراء بهم.

وأما التواضع المذموم: فهو تواضع المرء لذي الدنيا رغبة في دنياه.

ولذلك فإن العاقل من فارق التواضع المذموم على الأحوال كلها، ولا يترك التواضع المحمود على الجهات كلها.

٤ ـ شُرُوطُ ٱلتَّوَاضُع

أعلم أيها العبد المتواضع: أن هذا الخلق الرباني العظيم لا يصح إلا بشرطين:

١ - ٤ - الإخلاص لله.

قال صلى الله عليه وسلم:

« من تواضع لله رفعه »[١].

٢ - ٤ - القدرة:

قال صلى الله عليه وسلم:

« من ترك اللباس تواضعاً لله وهو يقدر عليه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخبره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها »[٢].

---

(١) سيأتي تخريجه برقم (٩).

(٢) سيأتي تخريجه برقم (٤).

٥ ـ أَبْوَابُ ٱلتَّوَاضُع

١ - ٥ - التواضع لله - عز وجل

وهو على ضربين:

أحدهما: تواضع العبد لربه عندما يأتي من الطاعات غير معجب بفعله، ولا راء له حالة توجب بها أسباب الولاية، إلا أن يكون المولى - عز وجل - هو الذي يتفضل عليه بذلك.

الآخر: هو ازدراء المرء نفسه عند ذكره ما قارف من الآثام حتى لا يرى أحدا من العالم إلا ويرى نفسه دونه في الطاعات، وفوقه في الجنايات.

قال تعالى:

﴿ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾

[سورة الأنبياء، آية ٩٠]

قال مجاهد: متواضعين[٣].

---

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٢٠٣/٣)، و«الدر المنثور» للسيوطي (٦٧١/٥).

٢ - ٥ - التواضع في اللباس

قال صلى الله عليه وسلم:

« من ترك اللباس تواضعاً لله وهو يقدر عليه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخبره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها »(٤).

---

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٨١) وأحمد (٣/٤٣٩) والحاكم (٤/١٨٣)، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/٤٨) من طريق أبي مرحوم عبد الرحيم بن ميمون عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: فذكره.

قال الترمذي: حديث حسن.

قال الحاكم: صحيح الاسناد، ووافقه الذهبي

قلت: القول ما قال الترمذي، فإنه أبا مرحوم أورده الذهبي في « الضعفاء » وضعفه أبو حاتم، وقال النسائي: أرجو أنه لا بأس به، وذكره ابن حبان في « الثقات »، وقال الحافظ: صدوق زاهد.

فمثله يميل القلب إلى تحسين حديثه، لأن الذين ضعفوه لم يفسروه ولم يبينوا سبب ضعفه.

وتابعه زبان بن فائد عن سهل بن معاذ به.

أخرجه الحاكم (١/٦١)، وأحمد (٣/٤٣٨).

قال الحاكم: ينفرد به زبان ولم يخرجاه.

قلت: كأنه نسي طريق أبي مرحوم السابق.

وزبان ضعيف الحديث من قبل حفظه.

وتابعه محمد بن عجلان عن سهل بن معاذ به.

واخرجه أبو نعيم (٨/٤٧) وفيه بقية بن الوليد وقد عنعنه.

وتابعه خير بن نعيم عن سهل بن معاذ به.

وأخرجه أبو نعيم (٨/٤٧) وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف من قبل حفظه.

فالحديث صحيح بهذه المتابعات.

٣ - ٥ - تواضع أهل العلم.

ينبغي للعالم ترك الدعوى لما لا يحسنه، وترك الفخر بما يحسنه إلا أن يضطر إلى ذلك، لأنه حينئذ يكون محدثا بنعمة ربه عنده على وجه الشكر لها.

وأفضح ما يكون للمرء دعواه بما لا يقوم به، وقد عاب العلماء ذلك، وقالوا فيه نظماً منه قول أبي العباس الناشي:

من تحلى بغير ما فيه عاب في يديه ما يدعيه
وإذا حاول الدعاوى لما فيه أضافوا إليه ما ليس فيه
ويحب الذي ادعا ما ادعاه إنه عالم بما يعتديه
ومحل الفتى سيظهر في الناس وإنه كان دائباً يخفيه

وقال آخر:

من تحلى بغير ما فيه فضحته شواهد الإمتحان
وجرى في العلوم جري سكيت خلفته الجياد يوم الرهان

٤ - ٥ - تواضع طلبة العلم

وينبغي لطلاب العلم أن يتواضعوا لأن المتواضع منهم أكثر علما كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماء وأعمها نفعاً.

ولقد أحسن من قال:

واحسن مقرونين في عين ناظر
جلالة قدر في خمول تواضع

٦ - درجاتُ التَّواضُع

١ - ٦ - التواضع للدين

وهو الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ - والاستسلام له، والإذعان وذلك بثلاثة أمور:

أ - أن لا يعارض شيئاً مما جاء به رسول الله ﷺ بشيء من المعارضات الأربعة السارية في العالم، المسماة: بالمعقول، والقياس، والذوق، والسياسة.

فالأولى: للمنحرفين من أهل الكبر من المتكلمين الذين عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة، وآرائهم الكاسدة.

وقالوا إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل وعزلنا النقل، إما عزلُ تفويض، وإما عزل تأويل.

وهذا ضرب من الجدال، والقول على الله بغير علم، وقد تلقاها هؤلاء من الشيطان الذي كاد بها نفسه قبل أن يكيد للأبوين: آدم وحواء، ومن ثم كيده لذريته وذرية آدم، فإن الله بسبحانه وتعالى لما أمره بالسجود لآدم كان امتثال أمره وطاعته وسعادته، وفلاحه، وعزه، ونجاته، فسولت له نفسه الجاهلة الظالمة أن السجود لآدم غضاضة عليه، وهضماً لحقه، إذ يخضع ويقع ساجداً لمن خُلِق من طين، وهو من نار السموم، والنار بزعمه أشرف من الطين، فالمخلوق منها خير من المخلوق

منه، وخضوع الأفضل لمن هو دونه غضاضة عليه، وهضم لمنزلته، فلما قام بنفسه هذا الهوس مقروناً بحسد آدم لما رأى ربه خصه بأنواع الكرامة، فعندئذ بلغ الكبر من عدو الله كل مبلغ، فعارض النص الرباني بالمعقول الشيطاني - بزعمه - كما علم أولياءه من المبطلين.

وقال كما أخبر العليم الحكيم عنه:

﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾

[سورة الأعراف: آية ١٢]

فاعرض عدو الله عن النص الصريح وقابله بالرأي الكاسد القبيح، ثم أردف معترضاً على الحكيم العليم الذي لا تجد العقول الى الاعتراض على حكمته سبيل، فقال:

﴿ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

[سورة الإسراء، آية ٦٢]

ومعنى الاعتراض الشيطاني: أخبرني لم كرمته علي؟

وغور هذا الاعتراض: أن الذي فعلته ليس بحكمة ولا صواب، وأن العقل والحكمة يقتضي أن يسجد هو لي لأن المفضول يخضع للفاضل فلم خالفت الحكمة؟!

واستدل بتفضيل نفسه بحجة داحضة حيث قرر تفضيل مادته وأصله على مادة آدم عليه السلام وأصله.

هذا التفكير الشيطاني أورث صاحبه الامتناع عن السجود ومعصية الرب المعبود، فأهان نفسه كل الإهانة من حيث أراد تعظيمها، ووضعها من حيث أراد رفعتها، وأذلها من حيث أراد عزلتها، وآلمها من حيث

أراد لذتها، ففعل بنفسه ما لو اجتهد أعظم أعدائه في مضرته لم يبلغ منه ذلك المبلغ، ومن كان هذا غشه لنفسه فكيف يقبل العاقل منه ويسمع ويواليه؟!

ولما رأى عدو الله ذلك لم يسأل الإقالة، ولا ندم على الزلة، ولكنه لقن حجته لأوليائه من الجن والإنس ليدحضوا الحق كما أخبر الله عنهم في كتابه المجيد:

﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾.

[سورة الكهف، آية ٥٦]

وقال:

﴿ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾.

[سورة غافر، آية ٥]

ولكن هذه الحجة الشيطانية داحضة عند الله:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾.

[سورة الشورى، آية ١٦]

ولكن الإنسان ينسى نفسه في أوقات كثيرة... ينسى أنه مخلوق ضعيف لا يقوم بذاته، ثم يروح ينتفخ، ويورم، ويتشامخ، ويتعالى يحيك في صدره الكبر يستمده من الشيطان الذي هلك بالكبر، ثم سلط على بني آدم فأتاه من قبله.

لذلك تراه يجادل في آيات الله ويكابر، وهي ظاهرة ناطقة معبرة للفطرة السليمة بلسانها، وهو يزعم أنه يناقش لأنه لم يقتنع، ويجادل لأنه غير مستعين.

وياليته كان جدالا عن علم ومعرفة ويقين، ولكنه جدال بغير علم، جدال التطاول المجرد عن الدليل وجدال الضلال الناشيء عن اتباع الشيطان قال تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

[سورة الحج، الآيتين ٣ - ٤]

والله البصير بعباده يقرر أنه الكبر، والكبر وحده هو الذي يحيك في الصدر، ويدعو صاحبه إلى الجدال فيما ليس فيه جدال بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير.

الكبر والتعالى إلى ما هو أكبر من حقيقته، ومحاولة أخذ مكان أكبر من حجمه، ولا تؤهله له حقيقته، وليست له بينة يجادل بها، ولا برهان يصدع به، ولا حجة يتوكأ عليها، وإنما هو الكبر وحده.

قال السميع البصير:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾.

[سورة غافر. آية ٥٦]

فكان لزاماً أن يلجأ العبد إلى الله مستعيذاً به في مواجهة الكبر الذي لا يقوم على معرفة، ولا يستمد من كتاب ينير العقل والقلب.

ويوضح الحق، ويهدي إلى اليقين، لذلك فهو يعوض عن هذا بالعجرفة والصلف فتراه مائلا مزوراً بجنبه، متبجحاً بضلاله.

قال تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾.

[سورة الحج، آية ٨ - ١٠]

هذا الكبر الضال المضل لا بد أن يقمع، ولا بد أن يحطم. فالخزي هو المقابل للكبر. والله لن يدع المتكبرين المتعجرفين الضالين المضلين حتى يحطم تلك الكبرياء الزائفة ويركسها في الحمأة الوبيئة، وفي الكبر هذا كله وهو يتعب صاحبه. ويتعب الناس من حوله. وهو يؤذي الصدر الذي يحيك فيه، فهو شر يستحق الاستعاذة بالله منه فيمتلىء الصدر تواضعاً وخشوعاً لله رب العالمين.

والثانية: للمتكبرين المنتسبين الى الفقه. حيث قالوا: إذا تعارض القياس والرأي والنصوص قدمنا القياس على النص. ولم نلتفت إليه.

والثالثة: للمتكبرين المنحرفين من المتصوفة. فإذا تعارض عندهم الذوق فالأثر. قدموا الذوق والحال، ولم يعبأوا بالأثر.

والرابعة: المتكبرين المنحرفين من الولاة الظلمة، والأمراء الجائرين.

الذين إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة، قدموا السياسة، ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة. فهؤلاء الأربعة: هم أهل الكبر، والتواضع: التخلص من ذلك كله.

ب - أن لا يتهم دليلا من أدلة الدين بحيث يظنه فاسد الدلالة، أو ناقص الدلالة، أو قاصر الدلالة. أو أن غيره كان أولى منه، ومتى عرض له شيء من ذلك فليتهم فهمه، وليعلم أن الآفة منه، والبلية فيه.

وقد أحسن القائل:

وكم من عـــائـــب قولاً صحيحـــاً
وآفتـــــه من الفهم السقـــــيم
ولكن تـــأخـــذ الأذهـــان منــــه
عـــلى قـــدر القرائـــح والفهوم

وهذا الواقع في الواقع حقيقة، أنه ما اتهم أحد دليلا للدين إلا وكان المتهم هو الفاسد الذهن، المأفون في عقله وذهنه، فالآفة من الذهن العليل لا في نفس الدليل.

وإذا رأيت من أدلة الدين ما يشكل عليك، وينبو فهمك عنه، فاعلم أنه لعظمته وشرفه استعصى عليك، وأن تحته كنزاً من كنوز العلم، ولم تؤت مفتاحه بعد لأنك لم تأخذ له السبيل السوي من الصدق، والإخلاص والضراعة إلى الله مقلب القلوب، ولأنك لم تأخذ الأسباب المصفية لذهنك المنظفة لقلبك من صدق التوجه إلى هدي رسول الله ﷺ لتستأهل هذا الكنز، هذا في حق نفسك.

وأما بالنسبة إلى غيرك فاتهم آراء الرجال على نصوص الوحي، وليكن ردها أيسر شيء عليك للنصوص، فما لم تفعل ذلك فلست على شيء، وهذا لا خلاف فيه بين العلماء.

ت - أن لا يجد إلى خلاف النص سبيلاً ألبتة لا بباطنه ولا بظاهره، ولا بلسانه ولا بفعله.

وأعلم أن المخالف للنص لقول متبوعه، وشيخه، ومقلده، أو رأيه، ومعقوله، وذوقه، وسياسته، إن كان عند الله مغدوراً - ولا والله ما هو بمعذور - فالمخالف لقوله لنصوص الوحي أولى بالعذر عند الله ورسوله وملائكته والمؤمنين من عباده.

فواعجباً إذا اتسع بطلان المخالفين للنصوص لعذر من خالفها تقليداً، أو تأويلاً، أو لغير ذلك، فكيف ضاق عذر من خالف أقوالهم، وأقوال شيوخهم لأجل موافقته النصوص؟

وكيف نصبوا له الحبائل، وبغوه بالغوائل، ورموه بالعظائم، وجعلوه أسوأ حالاً من أرباب الجرائم؟

ورموه بدائهم وانسلوا منه لواذاً، وقذفوه بمصابهم وجعلوا تعظيم المتبوعين ملاذاً لهم ومعاذاً.

واعلم أخا الإيمان أن هذه الدرجة لا تصح للعبد المتواضع إلا بأن يعلم: أن النجاة من الشيطان والضلال إنما هي في البصيرة، فمن لا بصيرة له فهو من أهل الضلال في الدنيا، والشقاء في الآخرة.

وهذه البصيرة نور يجعله الله لمن أدمن النظر في أعلام الحق وأدلته، وتجرد لله من هواه، عندئذٍ يرزقه الله فرقاناً يفرق به بين الحق والباطل.

فإذا استنارت بصيرة العبد، حصلت له ثقة بما هو عليه من العلم، وأنه مقتبس من مشكاة النبوة وحينئذ ينبغي أن يستقيم قولاً، وعملاً، وحالاً، لأنه تبين حجة الله، فاتضح له بها ما كان مُشكِلاً عليه من علومه، وما كان معيباً من أعماله.

٢ - ٦ - التَّواضع للخَلقِ.

هو:

أ - أن ترضى بمن رضي به الحق لنفسه عبداً - من المسلمين - أخاً لك.

ب - أن لا تَرُدَّ لعدوك حقاً.

ت - أن تقبل من المعتذر معاذيره.

فأما الأولى: فإذا كان الله - عز وجل - قد رضي أخاك المسلم لنفسه عبداً، أفلا ترضى أنت به أخاً؟! فعدم رضاك به أخاً - وقد رضيه مولاك الحق الذي أنت عبده عبداً لنفسه - عين الكبر.

وأي قبح أقبح من تكبر العبد على عبد مثله، لا يرضى بأخوته، وسيده راض بعبوديته.

فيحصل من هذا: أن المتكبر غير راض بعبودية سيده إذ عبوديته توجب رضاه بأخوة عبده.

ولقد قدر الله في مواطن كثيرة من كتابه أخوة المؤمنين:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾

[سورة الحجرات: آية ١٠]

وقال عز ثناؤه:

﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾.

[سورة آل عمران، آية ١٠٣]

ولهذا أشار رسول الله ﷺ قائلا:

« المسلم أخو المسلم »(٥).

وقال صلى الله عليه وسلم:

« المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره »(٦).

وأما الثانية: فينبغي لك أيها العبد المتواضع أن تقبل الحق ممن تحب، وممن تبغض، فتقبله من عدوك كما تقبله من وليك، وإذا لم ترد عليه حقه، فكيف تمنعه حقا له قِبَلَك؟

واعلم أن حقيقة التواضع: أنه إذا جاءك بحق قبلته منه، وإن كان له عليك حق أديته إليه، فلا تمنعك عداوته من قبول حقه، ولا من إيتائه إياه.

قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

[سورة المائدة، آية ٨]

قال صلى الله عليه وسلم:

« ثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الفقر والغنى والعدل في الغضب والرضا »(٧).

---

(٥) أخرجه البخاري (٦/٩٧ - الفتح) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.
(٦) أخرجه مسلم (١٦/١٢١ - نووي) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٧) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٨٠٢).

وأما الثالثة: فحاصلها أن من أساء إليك ثم جاء معتذراً من إساءته، فإن التواضع يوجب عليك قبول معذرته حقاً كانت أو باطلاً، وتكل سريرته إلى الله عز وجل.

وإذا رأيت خللاً في عذره لا توقفه عليه، ولا تحاجه، وقل: يمكن أن يكون الأمر كما تقول، ولو قضي شيء لكان، والمقدور لا مفر منه.

قال صلى الله عليه وسلم:

«المؤمن غرٌّ كريم والفاجر خب لئيم»(٨).

والغر هو الذي ينخدع لانقياده ولينه، وقلة فطنته للشر، وترك البحث عنه، ولا يكون ذلك منه جهلا ولكنه كرم وحسن خلق.

---

(٨) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٤١٨)، وأبو داود (٤٠٧)، والترمذي (١٩٦٤)، والحاكم (٤٣/١) وغيرهم.
من طريق بشر بن رافع عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً.
قلت: هذا إسناد ضعيف لأن بشر بن رافع ضعيف، ولكن تابعه الحجاج بن فرافصة.

أخرجه أبو داود (٤٧٩٠) وأحمد (٣٩٤/٢)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢٠٢/٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١١/٣)، والخطيب البغدادي في «تاريخه» (٣٨/٩)، والحاكم (٤٣/١)، و«معرفة علوم الحديث» (ص ١١٧).

وأعله الحاكم في «معرفة علوم الحديث» بأن الحجاج لم يسم شيخه في رواية سفيان عنه، وهي رواية أحمد وأبي داود.

قلت: وهذه علة غير قادحة، فقد سماه في رواية غيرهما.

والحجاج بن فرافصة صدوق عابد يهم، فإذا ضم إلى روايته رواية بشر بن رافع ارتقى الحديث بمجموعها إلى درجة الحسن.

٧ـ فَضَائِلُ التَّوَاضُع

١ - ٧ - التَّواضُعُ يَرفَعُ العَبْدَ.

اعلم أيها العبد المتواضع أن الواجب على العاقل لزوم التواضع، ومجانبة الكبر، ولو لم يكن في التواضع خصلة تجمله إلا أن المرء كلما كثر تواضعه ازداد بذلك رفعة لكان الواجب عليه أن لا يتزيّا بغيره.

قال صلى الله عليه وسلم:

« **ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً يعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه** الله »(٩).

ولذلك ترى منزلة العبد المتواضع عظيمة في قلوب الناس، لأن الله رفعه عند الناس، وجعل له لسان صدق فيهم.

وهذه عاجل بشرى المؤمن لما سيحبوه الله به في الآخرة من نعم لم تخطر على قلب بشر.

ولله در القائل:

وكفى بملتمس التواضع رفعة   وكفى بملتمس العلو سفالا

---

(٩) أخرجه مسلم (١٦/١٤١ - نووي)، والدارمي (١/٣٩٦)، وأحمد (٢/٣٨٦) وغيرهم.
من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

٢ - ٧ - التَّواضُعُ يرفَعُ حَكَمَةَ العبدِ.

قال صلى الله عليه وسلم:

« ما من آدمي إلا في رأسه حَكَمَةٌ[١٠] بيد ملك فإذا تواضع قيل للملك ارفع حَكَمَتَهُ وإذا تكبر قيل للملك ضع حكمتهُ »[١١].

قد يكون المراد أن رفعها دليل الإعزاز، لأن صفة الذليل تنكيس رأسه، ولكني أرى في هذا الحديث معنى لطيفاً يدل على أن التواضع سبب في انتفاع العبد بما جاء به رسول الله ﷺ من العلم والهدى بدلالة قوله صلى الله عليه وسلم:

« مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعَلِمَ وعَلَّمَ ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به »[١٢].

فأنظر - رحمك الله - كيف جعل الرسول ﷺ المعرض عن الهدى والعلم هو من لم يرفع بذلك رأساً، وهذه صفة المتكبر في الحديث الأول. فعلم أن الذي يحول بين المرء والانتفاع بالهدى والعلم هو الكبر الذي يحيك في الصدور - وسيأتي مزيد بيان في « خطورة الكبر ».

---

(١٠) حديدة في اللجام تكون على أنف الفرس وحنكه تمنعه من مخالفة راكبه.

(١١) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥٣٨).

(١٢) اخرجه البخاري (١/١٧٥ - الفتح) ومسلم (١٥/٤٥ - ٤٦ - نووي) من حديث ابي موسى الأشعري رضي الله عنه.

ولله در القائل:

والعلم حـرب للفتى المتعالي كالسيل حرب للمكان العالي

وذلك أن الكبر منقصة للعقل ولقد أحسن من قال:

التيه مفسدة للدين منقصة للعقل مهتكة للعرض فانتبه
لا تشرهن فإن الذل في الشره والعز في الحلم لا في البطش والسفه

٣ - ٧ - التواضع يكسب السلامة، ويورث الألفة، ويرفع الحقد، ويذهب الصد.

قال صلى الله عليه وسلم:

«إن الله أوحى إلي أن تـواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد»(١٣)

* * *

(١٣) أخرجه مسلم (١٧/٢٠٠ - نووي) وغيره من حديث عياض بن حماد رضي الله عنه.

٨ ـ أمورٌ تدلُّ على التَّواضُع

١ - ٨ - الخضوع للحقّ.

اعلم أيها العبد المتواضع أن لصاحب الحق مقالاً وصولة، لا تقر لها النفوس المبطلة على تلك الصولة التي في حناياها، فتراها تصول على الحق بتكبرها وباطلها لعلها تزهقه.

ولذلك فإن أمارة التواضع ولبابه خضوع العبد لصولة الحق، والانقياد لها، فلا يقابلها بصولة عليها، بل يتلقى سلطان الحق وبرهانه بالخضوع له، والذل والإنقياد، والدخول تحت طاعته بحيث يكون الحق متصرفاً فيه تصرف السيد في مملوكه. فبهذا يرث العبد خلق التواضع.

قال صلى الله عليه وسلم:

« الكبر بَطرُ الحق وغمط الناس »(١٤).

فإذا كان الكبر دفع الحق إنكاراً. وترفعاً، وتجبراً، فإن التواضع الخضوع له، والانقياد لصولته.

(١٤) اخرجه مسلم (٢/٨٩ - نووي) وغيره من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

٢ - ٨ - احترام النَّاسِ .

اعلم أيها الأخ المتواضع أن العاقل إذا رأى من هو أكبر منه تواضع له، وقال: سبقني إلى الإسلام، وإذا رأى من هو أصغر سناً منه تواضع له. وقال: سبقته إلى الذنوب، وإذا رأى من هو مثله اتخذه أخاً، فكيف يحسن أن يتكبر المرء على أخيه؟

ولا يجب استحقار أحد لأن العبد المتواضع لا يرى لنفسه قيمة فوق الناس. ولا يرى لأحد إليه حاجة لا في الدين، ولا في الدنيا.

ولا يترك العبد التواضع إلا عند استحكام الكبر في نفسه، فلا يتكبر على الناس أحد إلا بإعجابه بنفسه.

ولذلك بين الرسول ﷺ أن الكبر غمط الناس في الحديث الآنف، أي إحتقارهم واستصغارهم، فعلم أن التواضع إحترام الناس، وإنزالهم منازلهم.

٣ - ٨ -. القَصْدُ في المَشيِ .

قال تعالى:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾.

[سورة الفرقان، آية ٦٣]

أي سكينة ووقاراً متواضعين غير أشرين، ولا مرحين، ولا متكبرين.

إنهم يمشون على الأرض مشية سهلة هينة، لا تكلُّف فيها ولا تصنُّع، وليس فيها خيلاء، ولا تصعير خد، ولا تخلع، أو ترهل، فالمشية ككلٍّ حركة تعبر عن الشخصية، وما يخالجها. ويعتلج في حناياها من المشاعر،

والنفس السوية المطمئنة تخلع صفاتها على مشية صاحبها، فيمشي مشية سوية، مطمئنة جادة، قاصدة، ملؤها الوقار، والسكينة، والجد والقوة.

وليس معنى القصد في المشي أنهم يمشون متماوتين منكسي الرؤوس، متداعي الأركان، متهاوي البنيان كما يفعل بعض الناس ممن يريد إظهار التقوى والورع، والصلاح.

وهذا رسول الله ﷺ - لم يفعل شيئاً من ذلك، وهو أتقى الناس، وأعلمهم بالله.

قال ابن قيم الجوزية في «زاد المعاد» (١/١٦٧ - ١٦٨) يصف مشية رسول الله ﷺ:

«كان إذا مشى تكفَّأ تكفؤاً وكان أسرع الناس مشية، وأحسنها، وأسكنها».

قال أبو هريرة: ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ - كأن الشمس تجري في وجهه. وما رأيت أحداً أسرع في مشيه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كأنما الأرض تطوى له، وإنّا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث.

وقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ - إذا مشى تكفأ تكفؤاً كأنما ينحط من صبب.

وقال مرة: إذا مشى تقلّع.

قلت: والتقلع: الإرتفاع من الأرض بجملته كحال المنحط من الصبب. وهي مشية أولي العزم، والهمة والشجاعة، وهي أعدل المشيات، وأروحها للأعضاء، وأبعدها من مشية الهوج، والمهانة، والتماوت، فإن الماشي إما أن يتماوت في مشيه ويمشي قطعة واحدة كأنه خشبة محمولة، وهي مشية مذمومة قبيحة، وإما أن يمشي بانزعاج واضطراب مشي

الجمل الأهوج، وهي مشية مذمومة أيضاً، وهي دالة على خفة عقل صاحبها ولا سيما إن كان يكثر الإلتفات حالة مشيه يميناً وشمالاً، وإما أن يمشي هوناً وهي مشية عباد الرحمٰن كما وصفهم بها في كتابه فقال:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾.

[سورة الفرقان، آية ٦٣]

قال غير واحد من السلف: بسكينة ووقار من غير تكبر، ولا تماوت.

وهي مشية رسول الله ﷺ فإنه مع هذه المشية كان كأنما ينحط من صبب، وكأنما الأرض تطوى له، حتى كان الماشي معه يجهد نفسه وسول الله - ﷺ - غير مكترث، وهذا يدل على أمرين: أن مشيته لم تكن مشية تماوت، ولا بمهانة بل مشية أعدل المشيات» أ.هـ.

٤ - ٨ - خَفضُ الجَناحِ ولينُ الجانبِ.

قال تعالى:

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

[سورة المائدة، آية ٥٤]

وقال تعالى:

﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

[سورة الشعراء، آية ١٢٥]

★ ★ ★

٩ ـ أمور تعين على التواضع

١ - ٩ - التفكر في أَصلِ الإنسانِ.

إذا عرف الإنسان نفسه، علم أنه أذل من كل ذليل، ويكفيه نظرة في أصل وجوده بعد العدم من تراب، ثم من نطفة خرجت مخرج البول، ثم من علقة، ثم من مضغة، فقد صار شيئاً مذكوراً، بعد أن كان لا يسمع، ولا يبصر، ولا يغني شيئاً، فقد ابتدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوته، وبفقره قبل غناه.

وقد أشار الله - سبحانه وتعالى - إلى هذا بقوله:

﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾.

[سورة عبس، آية ١٨ - ١٩]

ثم امتن عليه بقوله:

﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴾.

[سورة عبس، آية ٢٠]

وبقوله:

﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾.

[سورة الدهر، آية ٢]

لقد أحياه الله بعد موت، وأحسن تصويره، وأخرجه إلى الدنيا، فأشبعه وأرواه، وكساه، وهداه، وقواه.

فمن هذا بدايته فأي وجه لتكبره وفخره وخيلائه؟!.

قال ابن حيان في «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» (ص ٦١):

«وكيف لا يتواضع من خلق من نطفة مَذِرَةٍ، وآخره يعود إلى جيفة قذرة، وهو بينهما يحمل العذرة».

٢ - ٩ - مَعْرِفَةُ الإنسانِ قدَرَه:

قال تعالى:

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾.

[سورة الإسراء، آية ٣٧]

قال العلامة محمد أمين الشنقيطي في «أضواء البيان» (٥٩٢/٣):

«أي أنت أيها المتكبر المختال: ضعيف حقير عاجز محصور بين جمادين أنت عاجز عن التأثير فيها فالأرض التي تحتك لا تقدر أن تؤثر فيها بشدة وطئك عليها، والجبال الشامخة فوقك لا يبلغ طولك طولها فاعرف قدرك ولا تتكبر، ولا تمش في الأرض مرحاً» أ.هـ.

ولقد أجاد من قال:

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً
فكم تحتها قوم هم منك أرفع
فإن كنت في عز وخير ومتعة
فكم مات من قوم هم منك أمنع

١٠ - تواضع رسول الله ﷺ

اعلم أيها العبد المتواضع أن آداب الظواهر عنوان البواطن. وحركات الجوارح ثمرات الخواطر، والأعمال نتائج الأخلاق. والآداب رشح المعارف، وسرائر الأفئدة هي مقايس الأفعال ومنابعها. وأنوار السرائر هي التي تشرق على الظواهر فتزينها وتحليها.

ومن خشع قلبه خشعت جوارحه، ومن امتلأ صدره بالأنوار الإلهية فاضت على مظاهره جمال الآداب النبوية.

ولذلك من أراد أن يُطَهِر قلبه من مادة الكبر. ويستعمل خلق التواضع فلينظر بعين الأسوة الحسنة إلى سيرة رسول الله - ﷺ - فقد كمَّل الله تعالى خُلُقه. وأثنى عليه فقال:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

[سورة القلم. آية ٥]

فسبحان من أعطى ثم أثنى.

وهذه جملة من محاسن تواضعه - صلى الله عليه وسلم -: عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ:

« لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله »[١٥].

عن أنس رضي الله عنه:

كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت[١٦].

وعنه أيضاً:

« ولقد رهن رسول الله ﷺ درعه بشعير ومشيت إلى النبي ﷺ - بخبز شعير وإهالة سنخة ولقد سمعته يقول:

« ما أصبح لآل محمد ﷺ إلا صاع ولا أمسى وإنهم لتسعة أبيات »[١٧].

عن الأسود قال سألت عائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟

قالت: كان يكون في مهنة أهله - تعني خدمة أهله - فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة »[١٨].

---

(١٥) أخرجه البخاري (٦/٤٧٨).
(١٦) أخرجه البخاري (١٠/٨٩ - الفتح) معلقا. ومسلم (١٥/٨٢ - ٨٣ - نووي).
(١٧) البخاري (٥/١٤٠ - الفتح).
(١٨) البخاري (٢/١٦٢ - الفتح).

١١ - مَا هُوَ ٱلْكِبْرُ؟

هو رؤية النفس على الحق والخلق. فالمتكبر يرى نفسه فوق غيره في صفات الكمال.

فإن الإنسان متى رأى نفسه بعين الإستعظام حَقَّر من دونه وازدراه. فهو ينظر للحق بأنه هضم لمنزلته وتصغير لشأنه، وينظر الى الخلق كأنهم الدواب إستجهالاً وإستحقاراً.

وقد شرح رسول الله ﷺ - الكبر فقال:

« الكبر بَطَرُ الحق وغمط الناس »[١٩].

وبهذا ينفصل الكبر عن العُجْبِ فإن العُجْبِ لا يستدعي غير المعجب، حتى لو قدر أن يخلق الإنسان وحده تصور أن يكون معجباً بنفسه، ولا يتصور أن يكون متكبراً، إلا أن يكون معه غيره وهو يرى نفسه فوقه.

* * *

---

(١٩) تقدم برقم (١٤).

١٢ - أسباب الكبر

١ - ١٢ - العُجْبُ.

اعلم أيها العبد المتواضع - زادك الله رفعة - أن الإنسان لا يتكبر على أحد حتى يعجب بنفسه ويرى لها على غيرها الفضل، فمن العجب يتولد الكبر.

والعجب مهلكة لقوله صلى الله عليه وسلم:

« ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه »[٢٠].

وقال صلى الله عليه وسلم:

« بينما رجل يتبختر في بردين وقد أعجبته نفسه خسف الله به الأرض فهو يتجلجل[٢١] فيها إلى يوم القيامة »[٢٢].

٢ - ١٢ - ازدراء الخلق.

اعلم أيها العبد ان من لم يستحقر الناس لم يتكبر عليهم، وكفى بالمستحقر لمن أكرمه الله بالإيمان طغياناً.

---

(٢٠) جزء من حديث مضى برقم (٧).

(٢١) يغوص في الارض باضطراب.

(٢٢) أخرجه البخاري (١٠/٢٢٢ - الفتح). مسلم (٢٠٨٨).

وقد مضى تفصيل ذلك في «أمور تدل على التواضع».

٣ - ١٢ - حُبُّ الرِّفعَةِ والعُلُو.

اعلم أيها العبد المحبت لله أن النفس تحب الرِّفعة والعُلُو على أبناء جنسها، ومن هنا ينشأ الكبر.

قال أبو العتاهية:

أأخي من عشق الرئـــاسة خفـــت أن
يطغـــى ويحـــدث بـــدعـــة وضـــلالا.

وقال ابن عبد البر:

حـــب الرئـــاسة داء يحلـــق الـــدنيـــا
ويجعـــل الحـــب حربـــاً للمحبينـــا
يفري الحـــلاقم والأرحـــام يقطعهـــا
فـــلا مروءة يبقـــى ولا دينـــا
من ساد بـــالجهـــل أو قبـــل الرسوخ فـــلا
تراه إلا عـــــدواً للمحقينـــــا
يبغي ويحسد قومـــــــاً وهو دونهم
ضـــاهـــا بـــذلـــك أعـــداء النبيينـــا

ولذلك من تدبر القرآن وجد أن المستكبرين من كل قوم هم الملأ الذين بيدهم أزمة الأمور.

قال تعالى عن ثمود قوم صالح عليه السلام:

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ

أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

[سورة الاعراف، الآيات: ٧٥ - ٧٧].

وأخبر عن قوم شعيب:

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾.

[سورة الاعراف، آية ٨٨]

والآيات في الباب كثيرة.

ولكن العاقل ينافس في العلو الدائم الباقي الذي فيه رضوان الله، وقربه، وجواره، ويرغب عن العلو الفاني الزائل الذي يعقبه غضب الله، وسخطه، وانحطاط العبد، وشغوله، وبعده عن الله، وطرده عنه، فهذا هو العلو الذي يذم وهو العتو والتكبر في الأرض بغير الحق. قال تعالى:

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

[سورة القصص، آية ٨٣]

وأما العلو الأول والحرص عليه فهو محمود قال الله تعالى:

﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾.

[سورة المطففين، آية ٢٦]

ففي درجات الآخرة الباقية يشرع التنافس، وطلب العلو في منازلها، والحرص على ذلك بالسعي في أسبابه، وان لا يقنع الإنسان بالدون مع قدرته على العلو.

٤ - ١٢ - اتباعُ الهوى.

اعلم أيها العبد أن الكبر ينبع من اتباع الهوى لأن الهوى داع إلى العلو في الأرض والشرف فيها.

قال تعالى:

﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾.

[سورة البقرة، آية ٨٧]

* * *

١٣ - خطورة الكبر

اعلم أيها العبد الذي أُثلج صدره ببرد التواضع، أن آفة الكبر عظيمة، وفيه يهلك الخواص، وقلما ينفك عنه العلماء، والعباد، والزهاد.

وكيف لا تعظم آفة وهو:

١ - ١٣ - أوَّلُ ما عصيَّ به الله - عز وجل -

لقد كان الكبر أول ذنب عصى الله به إبليس اللعين، فآل أمره إلى ما آل إليه حيث حمله على الاحتجاج بالأقدار والإصرار.

قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

[سورة البقرة، آية ٣٤]

٢ - ١٣ - الكبرُ قرين الشِّركِ وسببه.

ولذلك قرن الله - سبحانه - في كتابه المجيد بين الكفر والكبر، فقال عز ثناؤه:

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

[سورة ص، آية ٧٣ - ٧٤]

وقال تبارك وتعالى:

﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾.

[سورة الزمر، آية ٥٩]

لأن من تكبر عن الانقياد للحق - ولو جاءه على يد صغير أو من يبغضه ويعاديه - فإنما تكبره على الله فإن الله هو الحق وكلامه الحق، ودينه الحق، والحق صفته، ومنه وله، فإذا رده العبد، وتكبر عن قبوله، فإنما رد على الله، وتكبر عليه، ومن تكبر على الله أذله الله، ووضعه وصغّره، وحقّره.

٣ - ١٣ - النّار مثوى المتكبِّرين.

ولذلك جعل الله النار دار المتكبرين كما في سورة غافر آية ٧٦، وسورة الزمر آية ٧٢.

﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

والمتكبرون هم سكان جهنم وأهلها لقوله صلّى الله عليه وسلم:

«إن أهل النار كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع وأهل الجنة الضعفاء المغلوبون»[٢٣].

---

(٢٣) أخرجه أحمد (١١٤/٢) والحاكم (٤٩٩/٢) من طريق عبدالله أنا موسى بن علي بن رباح سمعت أبي يحدث عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ فذكره والسياق لأحمد.

قال الحاكم صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

قلت: وهو كما قالا:

وهم يذوقون فيها ألواناً من العذاب ويغشاهم الذل من كل مكان، ويسقون من عصارة أهل النار.

قال صلى الله عليه وسلم:

«يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان يساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس تعلوهم نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال»[٢٤].

٤ - ١٣ - الكِبْرُ حجابٌ دونَ الجنة.

ولذلك طرد الله سبحانه إبليس من الجنة فقال:

﴿ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾.

[سورة الأعراف، آية ١٣]

وإنما صار الكبر حجاباً دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين، لأن صاحبه لا يقدر أن يحب للمؤمنين ما يحبه لنفسه من الخير، فلا يستطيع التواضع ولا يترك الحسد، والحقد والغضب، ولا يكظم غيظاً، ولا يقبل نصحاً، ولا يسلم من الازدراء بالناس واغتيابهم، فما من خلق ذميم إلا وهو مضطر إليه.

= وله شواهد عن سراقة بن مالك، ومعاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهم.

الجعظري: الفظ الغليظ.

الجواظ: الجموع المنوع.

(٢٤) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٥٧). والترمذي (٢٤٩٢) وأحمد (١٧٩/٢) ونعيم بن حماد في «زوائد الزهد» (١٥١).

وحسنه الترمذي وهو كما قال.

٥ - ١٣ - لا يحِبُّ اللهُ المتكبِّرينَ.

ومن كانت هذه صفاته فإنه يستحق اللعن من الله، والبعد من رحاب رحمته. ويغضب الله عليه، ولا يحبه.

قال تعالى:

﴿ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾.

[سورة النحل، الآيتان ٢٢ - ٢٣]

٦ - ١٣ - الكِبْرُ سَببٌ في خاتمة السُّوءِ.

ولذلك أخبر الله أن أهل الكبر والتجبر هم الذين طبع الله على قلوبهم فهم لا يؤمنون، فقال جل جلاله:

﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾.

[سورة غافر، آية ٣٥]

٧ - ١٣ - الكبْرُ سببٌ في الإعراض عن آيات اللهِ.

وذلك أن المتكبر لا يبصر آيات الله المعبرة الناطقة بالأدلة القاطعة، لأن الكبر غشاوة على عينيه فلا يبصر إلا نفسه، ولا يشعر إلا بذاته.

قال تعالى:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

[سورة الأعراف، آية ١٤٦]

٨ - ١٣ - الكِبْرُ أعظَمُ الذُّنوبِ.

ومن كانت هذه خطورته فلا جرم أنه أعظم الذنوب.

قال صلى الله عليه وسلم:

«لو لم تكونوا تذنبون لخفت عليكم ما هو أكبر من ذلك العُجب العُجب»[٢٥].

★ ★ ★

---

(٢٥) حسن لغيره كما في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» لشيخنا (٦٥٨) فلينظر.

١٤ـ أبوابُ الكِبْرِ

١ - ١٤ - التَّكبُّرُ على الحقِّ.

اعلم أخا الإيمان أن من شر أبواب الكبر ما يمنع من الإستفادة من العلم وقبول الحق، والانقياد له.

وقد تحصل المعرفة للمتكبر ولكن نفسه لا تطاوعه على الانقياد للحق، فتصرفه عن الانتفاع به، كما أخبر الله تعالى عن قوم فرعون فقال:

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

[سورة النحل، آية ١٤]

وقال:

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴾.

[سورة المؤمنون، الآيات ٤٥ - ٤٨]

والآيات في هذا الباب كثيرة، وهذا تكبر على الله وعلى رسله.

٢ - ١٤ - التَّكَبُّر على العِباد.

وهذا باب يرى فيه المتكبر نفسه فوق الخلق، فيستعظمها، ويحتقرهم، وهو يدعو إلى التكبر على أمر الله تعالى، كما حمل إبليس كبره على آدم عليه السلام أن امتنع من امتثال أمر الله في السجود.

قال تعالى:

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾.

[سورة ص الآيات ٧٣ - ٧٦]

٣ - ١٤ - الكِبْرُ باللِّباس.

قال رسول الله ﷺ:

« **من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة** »،

فقال أبو بكر:

يا رسول الله إن أحد شِقَّي إزاري يسترخي إلاَّ أن أتعاهده ذلك منه؟

فقال صلى الله عليه وسلم:

« **لست ممن يصنعه خيلاء** »[٢٦].

(٢٦) البخاري (١٩/١٧ - الفتح) وغيره من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

فَعُلِمَ من هذا أن إطالة الثوب دون الكعبين هو الخيلاء وهو يستحق العقوبة في الدنيا قبل الآخرة.

قال صلى الله عليه وسلم:

« بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء خُسِفَ به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة »(٢٧).

٤ - ١٤ - التَّكَبُّر بالأفعال.

واعلم أن المتكبر يتعالى بأفعاله من الترفع في المجالس. والتقدم على الأقران، والإنكار على من يقصر في حقه، فترى العالم يُصَعِّر خده للناس كأنه معرض عنهم، والعابد يعيش ووجهه كأنه مستقذر لهم.

قال تعالى:

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾.

[سورة لقمان، آية ١٨]

وهذان قد جهلا ما أدَّب الله به نبيه صلى الله عليه وسلم حين قال:

﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

[سورة الشعراء، آية ٢١٥]

٥ - ١٤ - التَّكبر بالكَلام.

وقد يُظهر المتكبر الكبر بلسانه كالدعاوي، والتفاخر، وتزكية النفس، والتفيهق في الكلام ليظهر بلاغته وفصاحته.

---

(٢٧) مضى تخريجه برقم (٢٢).

قال صلى الله عليه وسلم:

« إن الله عز وجل يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها »[٢٨].

٦ - ١٤ - التَّكبر بالمشي.

ويُظهِر المتكبر الكبر في مشيته حيث يختال في مشيته ويتبختر في خُطاه.

قال تعالى:

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾.

[سورة الإسراء، آية ٣٧]

وقال صلى الله عليه وسلم:

« ما من رجل يتعاظم في نفسه ويختال في مشيته إلاَّ لقي الله تعالى وهو عليه غضبان »[٢٩].

---

(٢٨) أخرجه أبو داود (٥٠٠٥) والترمذي (٢٨٥٣) وأحمد (١٦٥/٢، ١٨٧) من طريق نافع بن عمر عن بشر بن عاصم بن سفيان عن أبيه عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً به.

قلت: وهذا إسناد حسن رجاله كلهم ثقات غير عاصم بن سفيان وهو صدوق كما في «التقريب».

(٢٩) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٤٩) والحاكم (٦٠/١) وغيرهما.

قلت: وهو صحيح.

٧ - ١٤ - التَّكَبُر بالأتباع.

واعلم أن التكبر بالأتباع، وكثرة الأنصار أكثر ما يجري بين الملوك بالمُكاثرة بالجنود، وبين العلماء بالمكاثرة بالمستفيدين.

٨ - ١٤ - التَّكَبُر بالجَمال.

وهذا الباب أكثر من يَلجه النساء فيَدعُوهُنَّ إلى التنقص، والغيبة، وذكر العيوب.

٩ - ١٤ - التَّكَبُر بالمال.

وهذا الباب يجري بين الملوك، والتجار، ونحوهم من أهل الدنيا الجَمَّاعين المَنّاعين، فيدعوهم إلى الشُّحِّ، والبخل والحسد.

١٠ - ١٤ - التَّكَبُر بالنَّسَب.

كالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أفضل منه عملا، ويتخيل أنه ينجو بشرف آبائه.

وهذا النوع قد جَهِل قوله تعالى:

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾.

[سورة الحجرات، آية ١٣]

فليس أحد أكرم من أحد إلا بالتقوى لأن أصل البشر واحد إليه ينتسبون، ومن فضَّل أصلَه على أصل غيره فقد قلَّد إبليس فبئست القدوة التي تسوق إلى سواء الجحيم.

وبالجملة فإن كل من اعتقد في نفسه كمالا أمكن أن يَتَكبَّر به حتى أهل الفسق والفجور قد يفتخرون بذلك لظنهم أنه كُمَّالاً، والعياذ بالله.

* * *

١٥ - أمورٌ تدلُّ على الكِبْرِ

اعلم أيها المسلم أن التكبر يظهر في شمائل الإنسان وحركاته وسكناته وسائر تقلباته ومن ذلك:

١ - ١٥ - أن المتكبّر يُحِبُ قيام الناس له

قال صلى الله عليه وسلم:

« من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار »[٣٠].

وإذا كان هذا التحذير في شأن الذي يُقام له فلا يجوز للقائم أن يبتدىء ذلك فإن الصحابة لم يفعلوا ذلك حتى مع أحب الناس اليهم وهو رسول الله ﷺ.

قال أنس:

لم يكن شخص أحب إلينا من رسول الله ﷺ كانوا إذا رأوه لم يقوموا لِمَا يعلمون من كراهته لذلك[٣١].

---

(٣٠) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٩٧٧). وأبو داود (٥٢٢٩) وغيرهما من حديث معاوية بإسناد صحيح.

(٣١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٩٤٦) وغيره وهو صحيح.

٢ - ١٥ - أن المتكبر لا يتعاطى بيده شُغلا في بيته.

٣ - ١٥ - أن المُتَكَبِّر يستنكف من جلوس أحد إلى جانبه أو مشيه معه.

هذه الأمور بخلاف ما كان عليه رسول الله ﷺ كما بيناه في « تواضعه صلى الله عليه وسلم ».

٤ - ١٥ - أن المتكبر يَلْوي رأسه ويُصَعِّر خَدَّه.

قال تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾.

[سورة المنافقون، آية ٥]

١٦ - أمور تعين على التخلص من الكبر

اعلم أخا الإيمان أن الكِبر من المُهلِكات ولذلك ينبغي للعبد أن يَفِرّ منه ملتجأ إلى رُكْن التواضع الوثيق مستعيناً بالله ومستعيذاً به من شر الكِبْر والعُجْب، ودونك بعض الأمور التي تعينك على تجنب الكبر:

١ - ١٦ - معرفة الله حق المعرفة.

ويكفي للمرء أن ينظر في آثار قدرة الله وعجائب صُنعه، فتلوح له عظمة الله جل جلاله فتظهر له المعرفة، وهذا هو العلاج القالع لأصل الكبر، لأن الإنسان إذا تراءت له قدرة الخالق، وعظمة الباري، علم أن الكبرياء رداء الرحمن والعز إزاره فكيف يجرؤ على منازعة الله في صفة من صفاته؟!

قال تعالى:

﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

[سورة الجاثية، آية ٣٧]

فالله عز شأنه هو الجبار المتكبر.

﴿ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

[سورة الحشر، آية ٣]

ولذلك فمن تكبَّر على المُتَكَبْر جل جلاله كان حقاً على الله أن يعذبه.

قال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه:

«قال الله عز وجل الكبرياء ردائي والعز إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار»(٣٢).

٢ - ١٦ - الإستعاذة بالله من الكِبْر والمُتَكَبِرين.

من استعاذ بالله فقد لجأ إلى حماه الوثيق، وركنه الركين، وكان حقاً على الله أن يعصمه من شر الكبر والمتكبرين.

قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾. [سورة غافر، آية ٥٦]

ولذلك ترى النبيين يستعيذون بالله من المتكبرين كما أخبر الله فقال عن موسى:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴾. [سورة غافر، آية ٢٧]

(٣٢) أخرجه أحمد (٢/٢٤٨) ثنا سفيان عن عطاء بن السائب عن الأغر عن أبي هريرة - قال سفيان أول مرة - إن رسول الله ﷺ - ثم أعاده فقال الأغر عن أبي هريرة قال فذكره.

قلت: وإسناده صحيح رجاله ثقات وسفيان هو ابن عيينة سمع من عطاء بعد الاختلاط لكن تابعه الثوري عند أحمد (٢/٣٧٦) حيث سمع من عطاء قبل اختلاطه، فصح الحديث.

٣ - ١٦ - التأسي بالمتواضعين.

وهذا الأمر هو العلاج العملي حيث يتواضع العبد لربه ولإخوانه المسلمين، فيواظب على خُلُق المتواضعين، وخير من يتأسى العبد به رسول الله ﷺ، وقد تَقَدَّمَت الإشارة إلى طريقته صلى الله عليه وسلم. وما كان عليه من التواضع، والأخلاق الحميدة.

٤ - ١٦ - من اعتراه الكبر من جهة النسب.

فليَعْلَم أن هذا تَعَزُّزٌ بكمال غيره. ثم يعلم أباه وجده. فإن آباه القريب نطفة مذرة. واباه البعيد تراب.

٥ - ١٦ - ومن أدهشه جمال ظاهره.

فلينظر إلى باطنه نظر العقلاء، ولا ينظر إلى ظاهره نظر البهائم.

٦ - ١٦ - ومن تجبر من جهة قُوَّته.

فليعلم أنه لو آلمه عرق عاد عاجزاً كل العجز وأعجز من كل عاجز، وأن حمى يوم تهد من قُوَّتِهِ مالا يعود في مدة. وأن شوكة لو وخزته في رِجْلِهِ لأعجزته. وبعوضة لو دخلت في أذنه لأقلقته.

٧ - ١٦ - ومن تكبر بسبب الغنى.

فليعلم أن اليهود أغنى منه، فأُف لِشَرَف يَسْبِقُ إليه المغضوب عليهم، ويستلبه السارق في لحظة، فيوعد صاحبه ذليلا حقيراً.

٨ - ١٦ - ومن رأى نفسه بسبب العلم.

فليعلم أن حجة الله على العَالِم أكبر من الجاهِل، وليتأمَّل الخَطَر العظيم الذي هو بصدده عندما يُعْرَض على الله، فيكلمه كفاحاً ليس بينهما تُرجُمان، فيسأله عن علمه ماذا فَعَلَ به ولِمَ تَعَلَّمَه؟!.

ولذلك فلا معنى لِعُجْبِ العامل بعمله، ولا العَالِم بعلمه، ولا الجميل بجماله، ولا الغني بغناه، إذ كل ذلك من فضل الله تعالى وإنما الإنسان محل لفيض النعم الإلهية، وكونه محلاً له نعمة أخرى.

ولذلك فَلْتَعْلَم أن عملك لا يؤهلك لدخول الجنة، وإنما برحمة الله التي يفرغها على عباده المتواضعين المُخْبِتِين، ويَحْجُبها عن المُتَكَبِّرين المتجبرين.

قال رسول الله ﷺ:

«**لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله**».

قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟

قال: «**ولا أنا إلا أن يَتَغَمَّدَني الله برحمة منه وفضل**»[٣٣].

★ ★ ★

(٣٣) رواه البخاري (١٠/١٠٩)، ومسلم (٦/٢٨) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

١٧ ـ آثارُ الكِبْرِ السيِّئةُ

١ - ١٧ - البغضاء والحسد.

إعلم أن البغضاء والحسد ما استُجلب بمثل التَّكَبُّر لأن من استطال على الإخوان فلا يَثِق منهم بالصفاء، ولا يجب لصاحب الكِبْر أن يطمع في الثناء، لذلك لا ترى تائهاً إلا وضعياً.

ولله در القائل:

ودَع التيْه والعبوس على النا س فإن العبوس رأس الحماقة
كلما شئت ان تعادي عاد يت صديقاً وقد تغر الصداقة

فإذا رأى المُتَكَبِّر مالا يرضيه بانصراف الناس عنه حيث ظن أن البشر عبيد له انبعثت نار الحسد من قلبه إلى وجهه، وتوجهت سهام الحسد من قلبه، فترى وجهه عبوساً قمطريراً، ونظره شزراً.

ولذلك أمر الله بالاستعاذة من الحسد والحاسدين كما أمر بالإستعاذة من الكبر والمتكبرين.

قال تعالى:

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾.

[سورة الفلق، آية ٤]

٢ - ١٧ - البغي

قال صلى الله عليه وسلم:

«إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد»[٣٤].

فعلم أن الكبر ينتج التفاخر الذي يولد البغي.

٣ - ١٧ - المَكْرُ السَّيِّء.

والمتكبر حتى يَسْتَذِلَ العبيد يَنْسج الأحابيل بالليل والنهار ليوقعهم فيها فلا يستطيعون نهوضاً، لذلك لا ترى متكبراً إلا خادعاً ماكراً يَرُوغ كما يروغ الثعلب.

قال الله تعالى:

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾.

[سورة فاطر، الآيتان ٤٢ - ٤٣]

وقال جل جلاله:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ

---

(٣٤) مضى برقم (١٣).

وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

[سورة سبأ: آية ٣٣]

لـذلك فالكبر سلسلة هدم تُفْضي حلقاتها إلى بعضها بعضاً، ولذلك قيل: العُجْبُ يهدم المحاسن.

* * *

١٨ ـ أمور لا تعد من الكبر

١ - ١٨ - الثياب الجميلة الحسنة.

قال صلى الله عليه وسلم:

«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر».

قال رجل:

إن الرجل يُحِبُ أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً.

قال:

«إن الله جَمِيل يُحب الجمال الكِبْرُ بَطَر الحقّ وغَمْط النَّاس»[٣٥].

٢ - ١٨ - الاختيال بين الصَفَّين.

إعلم يا أخا الإسلام أنه إذا التقى جيش الإيمان وجيش الكُفْر فإنه يجوز للمسلم أن يختال على أعداء الله مُتَحَدّياً مُظْهَراً قُوَّة الإسلام والمسلمين، لِيُلْقِي الرُّعْبَ في قلوب الذين كفروا.

ولذلك فإن الله يَبْغَضُ الاختيال في المشية إلا في هذا المَوطِن الذي تُرفع فيه كلمة الحق بإذن الله.

---

(٣٥) سبق تخريجه برقم (١٤).

قال صلى الله عليه وسلم:

« كل شيء ليس من ذكر الله عز وجل فهو لغو أو سهو إلا أربع خصال مشي الرجل بين الغرضين وتأديبه فرسه وملاعبته أهله وتعلم السباحة »[٣٦].

★ ★ ★

---

(٣٦) صحيح أنظر « سلسلة الأحاديث الصحيحة » (٣١٥).

الخاتمة

« رزقنا الله الحسنى وزيادة »


اعلم يا مسلم يا عبد الله - علمنا الله وإياك - أن هذه جملة خيرات التواضع فكن بَحّاثاً عنها والتزمها، وأحذر الكبر وويلاته، وروّض نفسك على التواضع فإنه العلاج القالع لبذرة الكِبْر التي إذا نَبَتَت في قلب أفسدته وجعلته كالبيت الخرب تأوي إليه الشرور من كل حَدَب وصوب.

اللهم لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، ولا تَكِلْنا إلى أنفسنا طَرْفَة عين، وثبتنا على دينك.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلاَّ أنت استغفرك وأتوب إليك.

فهرس المواضيع والفوائد

طبع بإشراف
دار الصحابة
للطباعة والنشر
ص.ب ٥٠٠٦/١٣ شوران
بيروت - لبنان


بسم الله الرحمن الرحيم
الم ذلك الكتب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين
يومنون بالغيب ويقيمون الصلوة ومما رزقنهم
ينفقون والذين يومنون بما انزل اليك وما انزل
من قبلك وبالاخرة هم يوقنون اولئك على هدى
من ربهم واولئك هم المفلحون ان الذين كفروا
سواء عليهم ءانذرتهم ام لم تنذرهم
لا يومنون ختم الله على قلوبهم وعلى
سمعهم وعلى ابصرهم غشوة ولهم
عذاب عظيم ومن الناس من يقول ءامنا
بالله وباليوم الاخر وما هم بمومنين
يخدعون الله والذين ءامنوا وما يخدعون
الا انفسهم وما يشعرون في قلوبهم مرض
فزادهم الله مرضا ولهم عذاب اليم بما
كانوا يكذبون واذا قيل لهم لا تفسدوا
في الارض قالوا انما نحن مصلحون الا انهم
هم المفسدون ولكن لا يشعرون واذا
قيل لهم ءامنوا كما ءامن الناس قالوا انومن
كما ءامن السفهاء الا انهم هم السفهاء